

الخلفيات الثقافية في ورقلة¹

د. الأخضر شريط
جامعة الجزائر

1: ورقلة (Ourgla) عنوان كتاب لـ: Maurice Jardon من الآباء البيض.

مقدمة:

إن الغرض من هذه الدراسة هو إبراز الخلفيات الثقافية في كتاب ورقلة: Ouargla وهو الكتاب الذي ألفه بالبربرية موريس جاردان Maurice Jardon وقام بترجمته إلى اللغة الفرنسية ج دي لور J. Delheur هذه الخلفيات من حياة الورقليين في بيوتهم. وعن ما يأكلون. وعن الحرف التقليدية عندهم. وعن الحمار عندهم. وعن الموت بورقلة. وعن ما يجلبون من النخيل. وهي كلها موضوعات تأتي متناسقة في الكتاب الأول مكونة ما يمكن تسميته بـ "من الثقافة الورقلية". بمعنى ذلك الجو الذي كان الورقليون يعايشونه.

سوف ننظر في ما إذا كان المؤلف قد رسم هذا الذي اصطالحنا عليه بـ "الجو"⁽¹⁾ رسماً يعكس نفسية الورقلي أحسن عكس. أو في ما إذا كان هذا الرسم لا يصور الحياة الاجتماعية الثقافية لهم بما فيها من تطابق. وسوف نحلل من حين لآخر الظاهرة التي سوف نقف عليها، مستخدمين الأدوات العلمية لكل من علم النفس وعلم الاجتماع. كما يمكننا في حالات كثيرة العودة إلى التاريخ وبالأخص التاريخ الثقافي لهذه البلدة: ورقلة. (وأما عن موضوعات الكتاب الثاني والذي جاء يحمل عنوان الزواج في ورقلة فإننا سنخصص له بحثاً مستقلاً لاعتبار المادة التي يحتويها أكثر من 530 ص).

يبدأ الكتاب بتقديم من جورج مارسيسي Georges Mercier وهو مطران قديم بالأغواط يشيد فيه بالنصوص البربرية من موريس جاردان وبالترجمة التي كانت وافية من دي لور "دون تقديم أدبي أو أتوغرافي". -وحسبه - فما يميزانه خطان: هما المثابرة والرزانة إنه دراسة في لغتها الأصلية. ومن وجهة نظر ودية أخوية وصبورة حياة الوركلي بالمنزل غذاؤه حرفته نخيله حيواناته العائلية، حفلات زواجه ... بادر كما يقول -حسب ما جاء في (الموسوعة حول تنمية الشعوب رقم 73) "بحوار مركز حول الإنسان وليس على السلع والتقنيات" وهذا الحوار الصحيح للحياة وللقلب يفترض نجاح التنمية أول حق للشعوب المحرومة من الإرث وبمفتاحها تأخذ بتربية الإنسان وبتقنيته الروحية والأخلاقية، حيث كل إنسان في العالم يطمح بالشرعية الحياتية أكثر⁽²⁾... وينتهي التقديم مرة أخرى بالإشادة بالمؤلف وبالمترجم كما يأتي على إقحام لمثل يقول أنه عربي يقول هذا المثل عندما يتعلق الأمر بالشقاوة "عندما تزور أعمى أغمض أنت الآخر عينيك"⁽³⁾ وهي في نهاية المطاف الطريقة الوحيدة كي لا تتحاور علميا لكن بأسى مع مرآتك. وسوف نقف بعض الشيء مع هذا المثل الذي قال عنه أنه عربي وللحقيقة أننا لا نعرف لهذا المثل رسما سواء أتعلق الأمر بالأمثال العربية أو حتى المحلية، ثم إنه معروف في الأدب العربي أن لكل مثل مضربا، ومعلوم أيضا أن الأخير لا يمكنه أن يكون إلا متناسقا والعادات والتقاليد العربية،

ومنه فإن هذا المثل لا نجد له رسماً وإنما إقحامه هنا كان من قبيل التعرض للأمثال وتوظيفها لأغراض غير الأغراض التي وصفت لها. في العنوان الموسوم بحياة الورقليين في بيوتهم يحاول موريس جاردان أن يقسم المجتمع إلى طبقات التجار، وهم الملاكون للربح الذي تجنيه التجارة وطبقة أخرى هي الطبقة الغالبة - حسبه - في البلد وهي طبقة العاملين في البساتين ومن هذه الأخيرة يبرز من أبنائها المجندون في الجيش والإداريون، وهي الطبقة التي يسميها أو التي هي جديرة باسم الورقليين سوف نلاحظ فيما بعد أن هذا التقسيم للمجتمع سوف يكون معتمداً في كل تحليلات صاحب الكتاب والورقليون بالتعريف هم سكان غير عرب، ولربما جاؤوا هكذا ليستقوا على ورقلة كما سقط حجر سارتر يوماً ما على البسيطة!⁽⁴⁾

إن هؤلاء الذين يطلق عليهم صاحبنا اسم الورقليين هم ليسوا عرباً ولا حتى مزايين وإنما هم عرق (.....). ومن الغريب أن صاحب الكتاب يقيم أقاويله انطلاقاً من عائلة كانت له علاقات متينة بها. يقيم بل ويسقط كل تحليلاته انطلاقاً منها، هذه العائلة هي عائلة الحاج سايب عبد القادر.

فبعد أن يتمادى في إيفاء التعجبات حول هذا التزايد الرهيب لها فإنه بالمقابل يقف عند حصاد الموت لهم من دون أن يقف على الأسباب الحقيقية التي كانت دوماً تقف وراء ذلك. بل ويختصرها

في الفقر والحرمان ولا يأتي على من تسبب في ذلك. وكأنه لا يرى الأسباب الحقيقية التي تقف وراء نتيجة الحرمان والفقر (والإحصائيات معروفة في ذلك و ممكن العودة إلى الأرقام)⁽⁵⁾. لكن اعتماده هذه العائلة بالضبط وتشريحه دون الوقوف على العلل الأولى التي وقفت دوما حائلا وراء تكونه الجسماني، ومن ثمة التنشئة الصحيحة لها أو تثقيفها كما يحلو لأهل الحضارة أن يتكلموا.

كما يخوض صاحب الكتاب في تفاصيل دقيقة عن أسرة هذا الحاج والغرض هنا واضح ويتجلى في الخوض في التركيبة الاجتماعية للعائلة كي يبرز مفاتها، ومن هذه المفاتن تعدد الزوجات وتعدد الأطفال والولدان وما ينجر عن ذلك من مشاكل بخصوص حالات الطلاق حيث الذكور تتبع الآباء والإناث يتبعن الأمهات، وللحقيقة نقول إن هذه الأخيرة بل الكل يتبع الأمهات في حالات ما قبل الرشد، أما ما بعد الرشد فإن الكل يذهب مع الآباء، وهي عادات تكون قد ترسخت في المجتمع ليس الورقلي (النموذج) وحده بل في المجتمع الجزائري ككل بفعل العادات والتقاليد التي ورثها هذا الأخير من التاريخ بل من القيم التي طالما حافظ عليها حتى مع المنعرجات التاريخية. وتبقى الحالة أو العينة التي يقدمها الكتاب حالة شاذة بل وغير مبررة على جميع المستويات.ومما يذكر صاحب الكتاب بخصوص التنشئة

الاجتماعية أن المرأة (عائشة) والتي تزوجها الحاج أخيرا كانت "تذهب إلى الأخوات (Les soeurs) وتتعلم عمل الزرابي"⁽⁶⁾ (M. Jardon,) (Ouargla, t, J. Delheure, Fort- National, Algérie, P10. وهنا نفتح قوسا لنقول إن هاته النسوة لا تعلم شيئا فحتى حياكة الزرابي تتعلم من الأخوات، عجيب هذا وكأن مهنة الحياكة لم تتوارث عبر الأجيال وللحقيقة نقول إن الحياكة كانت دائما مهنة توارثتها الأجيال عبر العصور ولم تكن يوما ما تراثا أوروبيا حتى تعلمه الأخوات للفتيات الورقليات أو غيرهن لكن صاحبنا كي يبرز موات هذه الأخيرة يرسمها على أنها لا تعلم شيئا⁽⁷⁾.

وفي الصفحة 12 يصور لنا العيش النكد على لسان محرز (أحد أفراد عائلة الحاج) وينسى أن يقف على الأسباب الحقيقية التي كانت دائما وراء هذا النوع من العيش ففي نظرنا إنه دائما النتيجة الحتمية لعامل الاستعمار⁽⁸⁾.

بل إن صاحب الكتاب يذهب إلى أبعد من ذلك حين يتدخل في تحليل العلاقة الاجتماعية التي تربط أفراد الأسرة بعضها ببعض فالحب أو التحاب بين أفرادها يقارنه بذلك الذي هو خاص بالأوروبيين، وكأن تقاليد هؤلاء القوم هي عينها التقاليد الغربية ! ويركز أيضا على حالة مرض أحد الأطفال وكانت الحمى تعصره وكانت أمه تبكيه وهو على تلك الحالة فيأتي الأب ويحاول إقناعها بأن الذي أعطى هو الذي يأخذ، وما الشجرة سوى

لمالكها. وتأخذ هي الأخرى بالنصيحة لتمسح دموعها قائلة كلامك هو الكلام الصحيح، وينفذ صبرها على ابنها لتسلم أمرها لله. والحقيقة أن صاحب الكتاب ينسى أو يتناسى أن هذه المعاناة هي وليدة المتسبب فيها، وليست وليدة العادات والتقاليد؛ لأن العادات والتقاليد والتمسك بها ما هي سوى نتيجة وتحصيل حاصل، ما كان يقع وما يمكن أن يقع من ضرر بالعائلة هذه أو غيرها.

وعندما يأتي على زواج أحد الأبناء فيصور أن عائلة الحاج ترغم الأبناء على ما اختاره الأولياء لزواج الأبناء. ونقول حينئذ أن هذه العادة هي الأخرى لصيقة بالتقاليد وهي من الموروثات التي اعترضت منعرجات التاريخ ليس إلا والدليل على ذلك أننا اليوم نراها تتلاشى ولا يمكنها أن تكون الوجه الحقيقي للورقليين أو لغيرهم. وما هذا فإن الهمز واللمز من صاحب الكتاب تسكن وراءه خلفية ثقافية حين يتأنى ليقول "أن البنت الورقلية بإمكانها تغيير رأي عائلتها وهذا لن تجده عند العرب"⁽⁹⁾. ويسرد بعد ذلك قصة مؤكدة على ذلك. وهنا بودنا أن نتوقف قليلا لننظر في هذه الخلفية الثقافية:

أولها: أنها تصور للقارئ أن المجتمع الورقلي قسمان عرب وورقليين! كما يحلو لصاحبنا تسميتهم. والغرض هنا واضح هو تكريس سياسة فرق تسد. هذا أولا.

وثانيا: إن الغرض الآخر هو بث نغرات التفرقة بين أبناء المجتمع الواحد.

وثالثا: إذكاء الروح العنصرية، ويتجلى ذلك من خلال هذا المثال الذي صاغ به حكايته. وكأن هؤلاء الآباء⁽¹⁰⁾ إنما وجدوا بتلك المناطق إلا لهذه الأغراض والكاتب جاردان أحدهم. وفي علمنا فإنه لا يوجد مجتمعا متمايزيا في ورقلة بل يوجد مجتمع واحد.

وفي لفظة خاطفة يؤكد على مدى التقاليد المرسخة في الزواج كطلب الرخصة من القايد(caid)⁽¹¹⁾. وكزيارة الأولياء قبل القران .. فبخصوص النقطة الأولى نقول أن طلب الرخصة من "القايد" هو عورة من عورات الحكم الفرنسي فلقد كان يضايق المواطنين حتى أنه يتدخل في أحوالهم الشخصية! وأما عن زيارة الأولياء قبل القران فإن هذا كان يرسخ بعناية وبمباركة من سلطات الاحتلال لغرض بل لأغراض لا يسمح هنا المقام لذكرها، ولكن الغريب أن صاحبنا ينسى أو يتناسى أن عقود الزواج كانت تتم في المساجد وأغلبيتها لا تعير اهتماما للعقود المدنية (بسبب أنها تحت نير الاحتلال).

وهاهي خلفية ثقافية أخرى يحسن صاحب الكتاب النسج على أبعادها، ففي مجال العلاقات الاجتماعية وبالأخص عن الاستعمال اللغوي فإن تقسيما آخر ينشئه لهذه المسألة الثقافية الجد هامة إذ بموجبها يسعى عنوة إلى زرع فتنة التباين الثقافى اللغوي

الذي يفترضه بل يختلقه من الذي يسميه: أن بعض المجتمع بورقلة يتكلم ورقلي والبعض الآخر يتكلم عربي ولا نعلم حتى هذه السنة، أن المجتمع هذا له هذه الخاصية أي خاصية التكلم بالورقلية، وخاصية التكلم بالعربية والذي هو معروف أن المجتمع هذا لا يتكلم سوى لغة واحدة هي العربية، ثم ما هي الورقلية للحقيقة؟ نقول إن ما أطلق عليه بالورقلية لا أثر لها لا في السابق ولا اليوم ولا كانت تكون يوما ما بدليل أن كل أهل ورقلة يتكلمون لغة واحدة هي العربية. قد تكون في شكل اللسان الدارج ففي كل الأوطان توجد مثل هذه الحكاية، أي حكاية الدارجة والفصحى. أما غير هذا فلا وجود لما دعاه بالورقلية اللهم إلا تواجد لغات أخرى في المعامل البترولية، ولكن هذا اليوم مع التواجد الصناعي. وهذا الذي هو معروف في الجزائر والذي به أن كل الجزائريين جزائريون في أماكن العمل أي في المصانع وإليك النص الذي يؤكد هذه الخلفية عند صاحب الكتاب يقول: "الذي هو معروف عند أهل الدار أن الحاج (وهو هنا نموذج يأخذ طابعه التعميمي) لم يذهب إلى المدرسة في صغره غير أنه مع بيعه لمحاصيله الزراعية تعلم بعض الكلمات التي من خلالها يتعامل، يعرف العربية لكن لا يتكلمها إلا عندما يكون عند العرب على غرار ذلك فإنه مع أهل الدار والورقلين فإنه يتكلم ورقلية.

الرجال فيما بينهم لا يتكلمون الورقالية إلا لما يكونون مع النساء اللاتي لا تعرف العربية بالمنزل: يحبون أن يتكلموا العربية من حين لآخر لكن ليس دائماً"⁽¹²⁾.

وفي نفس السياق وحينما يتكلم عن بلخير ومحرزاص [24] (وهما من عائلة الحاج العائلة النموذجية في الكتاب) فيصور أنهما متعلمان للفرنسية يقرآن ويكتبان بها حيث أنها أي الفرنسية تخدمهما. وللحقيقة نقول أن اللغة الفرنسية وإن خدمتهما فإنما كان لها ذلك من أنها لغة المحتل الشيء الذي يتغاباه صاحب الكتاب، ثم إن اللفتة هذه ملفتة في الكتاب، حيث يعلمانها "للورقليين" (بمفهوم صاحب الكتاب) دون سواهم وهي النظرة العنصرية التي طالما فاخرت بها النزعة الاستعمارية بل نقول التي طالما فاخرت بها فرنسا الحضارة!

وبصدد حديثه عن حالة المرض التي أصابت الحاج سايح نموذج المختار (لسنا ندري ما إذا كان هذا النموذج مازال حيا يرزق إلى اليوم وإلا أتينا بشهادته) يقدم بل يدس سما آخر أكثر عنصرية ومغرض أكثر من سابقه هذه النظرة هي أنه "لا يترك محاصيله الزراعية تتضج بل يأكلها نية (خضراء) حيث أن الورقليين يخشون من العرب الآكلين لمحاصيلهم هذه: يأتي العرب في الخريف يخيمون بأطراف ورقلة ويأتون على كل ما يصادفونه من محاصيل، سالبها من مالكيها إذ لا ينتبهون"⁽¹³⁾ هذه النظرة

للعرب وهذه التفرقة لما يسميه بالورقليين ولما يسميه بالعرب يصور من خلاله النموذج الأول كادا مجتهدا والثاني لا يهمله إلا ترقب وقت القطف حتى يسلب وينهب ما جناه الورقليون، وكأن المسألة هي مسألة عنصرين من البشر: ثم إن هناك عنصرا محببا والآخر ممقوتا، وإن الثاني ليس له سوى السلب والنهب وهي الصورة المشينة التي يريد أن يصل إليها صاحب الكتاب لغرض واحد ووحيد هو بث روح التفرقة وزرع العنصرية بين أبناء المجتمع الواحد، وكأن صاحب الكتاب تعلم من الديانة النصرانية هذه الروح. وأيضا كأن هذه الأخيرة كانت دوما وأبدا في خدمة فكرة الاستعمار.

وهناك ألف وألف مثال على هذه الروح الحاقدة التي يبثها هؤلاء الذين يدعون أنهم رجال الدين المسيحي وهم في خدمة الأغراض الاستعمارية. ومن هذه الأمثلة تلك التي يصور فيها في الصفحة 32 أن العرب سارقون للتمر وأن ما يسميهم بالورقليين يجندون عندما يأتي الخريف لحراسة بساتين النخيل. والعرب - حسب رأيه - " هذه الفئران هم السارقون الذين يأتون في الخريف" ⁽¹⁴⁾ إن جملة كهذه لا تؤهل صاحب الكتاب لا لأن يكون رجل الشارع ناهيك عن أن يكون رجل دين مسيحي بل يحمل رتبة أب في الدين المسيحي؛ لأن المنطق يقول أن السرقة آفة ذميمة لا يتحلى بها جنس عن جنس وإنما هي قسمة مشتركة بين

السفلة في الأمم. هذا أولا وثانيا أن التقسيم للمجتمع الورقلي على هذه القاعدة إنما جاء من قبل بث الفرقة وبث البغضاء والتحاسد بين أبناء ورقلة وهذا إنما يصور النفسية التي كان عليها ما سمي بالأباء البيض. كما يصور طبيعة العمل الاستعماري حين يتم من تظافر قوى شتى ومن بينهم هنا رجال الدين المسيحي كأن المسيح عليه السلام نصحهم ببث الفرقة وببث الحسد والتباغض وما نسميه اليوم بالروح العنصرية. لكن المسيح بريء منهم ومن أعمالهم الشيطانية وهو العمل الذي يدخل حسب رأينا في كيد الاستعمار؛ لأن هذا الأخير يمكنه أن تكون له أشكال عديدة كلها تعمل كما قلنا متضافرة معا من أجل غاية، هي تمزيق العلاقات الاجتماعية. وصدق من قال: "ولن نستطيع أن نتفهم عمل الاستعمار إلا ريثما يثير ضجيجا كضجيج الدبابة والمدفع والطائرة، أما حينما يكون من تدبير فنان أو من عمل قارض فإنه يغيب عن وعينا.." (15). وعلى هذا كانت دوما شاكلة الأباء البيض في الجزائر. إن العمل الاستعماري هنا يتفنن في إعطاء الصورة المشينة للمجتمع بورقلة ويفضل بل ويتغافل وجوده هو نفسه كمبشر بالروح التي يفترض أنها ترفع من قيمة الإنسان ولا تتقص منها الروح التي جاءت بها فرنسا للجزائر، والتي - كما قيل الروح أو كما يقال - الروح الحضارية لأوروبا!. لكن ومع الأسف إنها الروح الممزقة للمجتمع بورقلة. قد يقول السائل أن الذي تكلم عنه صاحب

الكتاب كان حاصلًا في المجتمع بورقلة ونحن لا ننكر عليه كلامه هذا وإنما ننكر عليه أن يتعلق ما قال بعنصر اجتماعي واحد. ثم هبه موجود لكن رصده وتدوينه بالصيغة التي جاءت في الكتاب إنما كانت من باب "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم.." (16).

ويختم صاحب الكتاب حديثه عن الحياة بورقلة بتقديم نصائح لإخوانه من الأوروبيين حتى يمكنهم التعايش مع أهل هذه البلدة من الورقليين (بالمعنى الذي نبهنا إليه سالفا). غير أنه وخلال هذه النصيحة تتجلى النظرة التمييزية وذلك حين يجعل من أن الذكاء خص به الله الأوروبيين دون غيرهم فيقول: "إذا كان الله قد وهبك ذكاء أرقى منهم لأجل عملك ولتأهل يديك هب لهم منه، بين لهم أنك تحبهم وأنك..." وهذه المسألة تتنافى والروح العلمية التي تقول أن الذكاء قسمة بين البشر وليس الذكاء خاص بجنس معين. والفرق الوحيد إنما يكمن في أن بعضهم توفرت له شروط تمييزته والبعض الآخر لم تتوفر لهم وكان لهم ذلك بتكاسل وبتراخ واستسلام للراحة وللكسل يوما ما في تاريخهم.

وبصدد ذكر الأكل والشرب بورقلة، يذكر، بل ويركز على بعض العادات السيئة المنتشرة في المنطقة. ومنها تقديم أنوية التمر لمعلم القرآن الكريم وبعض التقاليد التي تعبر عن الكره الشديد للأنتى. ومن التقاليد - حسبه - شرب اللقمي المخمر.

كما يذكر العرب مع الجراد. فيقول: "في عام الجراد كان العرب يحملون إلى ورقلة أكياسا كبيرة من الجراد لبيعها أو لتبديلها بالتمر والورقليون يحبون كثيرا الجراد حتى أنهم يستبدلون الطبق منها بطبقين من التمر وكذلك يقدمون التمر للفقراء وللزنوج⁽¹⁷⁾.

ومن الصفات التي يصف بها محرز (وهو أحد أفراد الحاج سايح) وفي تناوله للأكل إنما يأكل "ككلب شره". وهناك الكثير من الصفات الأخرى التي يصف بها أفراد العائلة أثناء تناولهم الأكل.

ونحن عندما نقف اليوم قليلا عند كل هذه النعوت إنما لنقول أن صاحب الحضارة والتحضر يريد أن يوصل من خلالها جملة من "عملية القضم" للنسيج الاجتماعي هناك ومن هذا القضم: يريد أن يوصل فكرة أن الأوروبيين أرقى من حيث المأكل والمشرب دون أن يراعي لعنصرين هامين في القضية اهتماما.

أولها أن التباين الثقائي يفرض تباينا في السلوك اليومي لحياة شعب ما. وليكن هذا الشعب كما هو مصور في الكتاب هنا هو الشعب الورقلي.

وثانيا ظن أن السلوك الفردي إنما هو سلوك اجتماعي مربوط بالوتيرة الاجتماعية لهذا المجتمع أو ذاك وهذا صحيح من الناحية الاجتماعية. وبعيدا عن كل هذا أو ذاك فإن نمط المعيشة هو الآخر

يفرض تكييفا معيناً مراعيًا للبيئة وللمجتمع الذي تعايشه هاته البيئة أو تلك من أفراد المجتمع. ونحن حينما نقول أن نمط المعيشة - كان للورقليين - هو كذا أو كذا. فإن صاحب الكتاب ينسى بل يتناسى أن الذي آل إليه وضع القوم إنما كان من تدبير ذاك الفنان بل القارض أو القاضم الذي ظل يقرض في النسيج الاجتماعي للأمة وللأفراد. إنه عمل الاستعمار - (لقد كان يصادر أحسن بل وأجود أنواع التمر من أهلها ويصادر أحسن وأجود الخضروات منهم لبيعت بها إلى باريس فكيف بحال القوم يوسمهم الرخاء) - الذي لم يُبق ولم يذر لأهل ورقلة ما يمكنهم من أن يكونوا قوما متحضرين في المأكل وفي المشرب. أعني أن القوم وحسب تحليل صاحب الكتاب باتوا يعانون المسغبة. وإن الذي يعاني هذه الحالة الاقتصادية - بفعل "معامل الاستعمار" - كان على أهل الدين المسيحي أن يأخذوا بيديه إلى الحياة الكريمة وأول خطوة كنا نراها لذلك هي:

أولاً: كان عليهم أن يضعوا مخططاً اقتصادياً يكفي لإزالة الغم والمسغبة عنهم، عوض التلذذ بوصفها، بل والتفنن في الوصف قصد أغراض تخدم فكرة الاستعمار. ولا يمكنها في شيء أن تخدم بأي حال من الأحوال "المعذبون في الأرض". إنها الرسالة التي كان يفترض أن يكون قد قدمها السيد المسيح. ولكن كأنهم

(أي الآباء البيض) من أولئك القوم الذين قالوا "...ليس علينا في الأميين سبيل..."⁽¹⁸⁾.

وفي موضوع متعلق بالبطالة يقر صاحب الكتاب أنه بعائلة متكونة من عشرة أشخاص أو أكثر نجد ثلاثة أو أربعة يعملون بينما البقية تعيش على ظهورهم⁽¹⁹⁾.

إن هذا الوضع المأساوي لا يعود إلى الورقليين بحد ذاتهم. وإنما يعود إلى سياسة التفجير والتجهيل التي مارستها فرنسا الحضارة! في مستعمراتها وورقلة إحداها والإحصائيات موجودة ومعروفة لدى الخاص والعام. ولربما أحسن حجة في هذا المجال هي: تجمع جل الكتب التاريخية أن الجزائر قبل سنة 1830 كانت تصدر القمح فنتساءل كيف كان لها ذلك والورقليون لا يعملون إلا بهذا العدد القليل من الرجال إن لم نقل الزهيد. نعتقد أن رجال الاقتصاد لا يرون الإنتاج إلا من عمل.

وفي مقام آخر يدخل صاحب الكتاب في تناقض لما كان مع الصفحات السابقة والتي أشرنا إليها لما يجعل من العرب جنسا تلتصق به أذم الصفات ومنها صفة السرقة، بينما حين يتناول البطالة كموضوع له يرى بأنهم مالكون لبساتين النخيل مع "المزابيين" (نسبة إلى سكان وادي ميزاب بغارداية: المدينة الجزائرية) وأما الذين يسميهم الورقليين فهم عمال بها لا ملكية لهم إلا من اليسير. ومن ذلك بعض التجارة. ويكمن الجواب على التساؤل في أن هؤلاء

القوم من العرب من جهة هم رُحَّل لا يأتون إلا في الخريف للسرقة، ومن جهة أخرى هم هنا مالكون كبار للنخيل إنه التناقض المنطقي الساطع البرهان. وكان الغرض منه هنا إظهار ما أسماه بالورقليين أنهم شادون على أزهرهم، فبسواعدهم لا يعيشون عيلة على غيرهم في مقام كهذا الذي تكلمنا عليه. وفي مقام آخر كما مر معنا غيرهم (العرب) هم العيلة؛ لأنهم سارقون وناهبون لخيرات الخريف.

وبالمقابل نجده يتكلم في مقام آخر عن أحد أفراد عائلة الحاج سايح وهو بلخير. فهذا الأخير جدي في عمله (يمتهن حرفة الحدادة) وهو الذي يغطي جميع الحاجبات سواء للورقليين (كما تحلوا له تسميتهم) أو حتى لغيرهم من العرب (التقسيم المغرض عنده). وهو على هذه الجدية في العمل لأنه ورقلي⁽²⁰⁾ أي بربري الأصل كما سبق وأن أشرنا للكلمة (حسب فهم صاحب الكتاب).

وبعد أن يتكلم عن الحمار والدور الذي يقوم به كوسيلة عمل يخصص مكانة لا بأس بها للتكلم على صاحب العائلة الحاج سايح الذي وافته هذه المرة المنية فيخصص له هو الآخر صفحات يتتبع من خلالها كل مراحل عملية التأبين وكل ما يرافق ذلك من عادات وتقاليد وهو يركز عليها كثيرا طبعا لغرض أو لآخر إلى أن ينتهي بالكتاب إلى تسجيل ملاحظاته الخاصة. ولقد لفت انتباهنا

فيها أنه يذكر أيضا قصة غريبة عن موت امرأة عربية حيث يذكر أن هذه المرأة أمنا سول *soule* - كما تدعى - (ولا يذكر اسمها الحقيقي والكامل حيث لا يعرفه كما يدعي) كانت تجول وتصل إلى أن أصيبت يوما ما بالجنون فبتفنن في وصف حالتها هذه إلى أن يصل إلى أنها وفي إحدى الأيام قيل أنها ماتت (والواقع أنها دخلت في غيبوبة) فدفنت إلى أن مر بقبرها في اليوم الثالث أحد المارة فسمع أنين فيه فحضر القبر وأخرج منه المسكينة ولما أوقفها وكانت في السابق فاقدة للعقل قال الجميع أنها كانت قد دخلت في خصومة مع عزرائيل ومع الأموات⁽²¹⁾. إن رصد قصة غريبة كهذه إنما أريد منها عدة أغراض نذكر منها:

1 - أن العرب أغبياء لدرجة أنهم يدفنون مرضاهم أحياء.

2 - أن الحكايات الخرافية هم المتسببون فيها.

3 - أن الصورة أو المنظر القبيح هذا من إنتاج عربي.

والحقيقة نرى في هذه القصة تشويها نابعا من عنصرية لا مثال لها عنصرية تصب في خدمة الفكرة الاستعمارية وذلك كون أن العرب ممثلون بهذه الحالة الشاذة التي يذكرها صاحب الكتاب؛ لأن الموت والتحقق منه أمر تعرفه كل الأمم فكيف بهذه الأمة لا تعرف ذلك (يكون الأمر كذلك إذا كان ذلك من البدائية والعرب أمة لا تعيش في فترات ما قبل التاريخ بل لهم تاريخ وحضارة. ثم إن هناك فضلا تاما في عبقريتهم لما هو خرافة ولما هو حقيقة.

وأما عن المنظر أو الصورة القبيحة فإن الحالة الشاذة لا يمكنها أن تشكل في شيء ما الصورة الحقيقية باعتبار الشاذ تربطه قاعدة "الشاذ يحفظ ولا يقاس عليه" وأما عن الغرضية فمعروفة وواضحة للعيان حتى أن بعضهم قال في رسم الصورة الحقيقية للاستعمار:

"عبثا تشخذ أظفارك حمرا للحصاد عبثا تلبس هذه الأرض أثواب الحداد"

هذه بعض العينات التي استطعنا رصدها من الكتاب "ورقلة" لصاحبه جاردان وهو مرسوم بحروف قيل عنها أنها بريرية، وقام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية دولار. والصاحبان معا من الآباء البيض عاش في ورقلة. والعبرة كل العبرة في أن تاريخ الشعب لا يمكن كتابته اعتمادا على هذا النوع من الثقافة ثقافة بث روح الحقد والكراهية في أبناء الأمة الواحدة سواء أكانوا في ورقلة أو في تمنراست أو في العاصمة أو في القبائل أو في تبسة أو في وهران أو في غيرها من دنيا الجزائر، والحمد لله رب العالمين الذي به تتم الصالحات.

المراجع

- 1 - يعرف مالك بن نبي الثقافة بالجو الذي يعمل على نحت شخصية الفرد...أنظر مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصابر شاهين دار الفكر دمشق 1980
- 2 - أنظر مقدمة الكتاب التي كانت من جورج مارسويه وهو مطران قديم بالأغواط ص1
- 3 - قد يكون المثل هذا أوروبي حيث لا نجد له أثرا في الأمثال الجزائرية
- 4 - تدعي الوجودية أن الإنسان كذف به في هذا العالم. أنظر تفاصيل ذلك في جون بول سارتر الوجود والعدم
- 5 - يراجع ذلك في كتاب أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي دار الغرب الإسلامي
- 6 - أنظر M. Jardon, Ouargla, t, J. Delheure ,Fort- National Algérie, P10
- 7 - أنظر تفاصيل ذلك، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي.
- 8 - أنظر تفاصيل أكثر، فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب
- 9 - أنظر، (M. Jardon, Ouargla, t, J. Delheure ,Fort- National Algérie, P18)
- 10 - أنظر تفاصيل أكثر في موضوع الحركة التبشيرية في الجزائر في القرن 19 كتاب خديجة بقطاش.
- 11 - أنظر، M. Jardon, Ouargla, P20
- 12 - Ibid, P22
- 13 - Ibid, P26
- 14 - Ibid, P32
- 15 - أنظر في هذا مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1980.
- 16 - سورة البقرة آية 119.
- 17 - M Jardon, Ouargla, P5

18 - سورة آل عمران الآية 74

Ibid,P70 - 19

Ibid,P82 - 20

Ibid,P142 - 21